العمارة أساس الحضارة والنهضة العمرانية

د. محمد حسان السراج

دكتور مهندس في تاريخ العمارة الإسلامية

الحضارة بأهميتها يعتبرها المؤرخون بأنها ذات شأن كبير في أساسيات العمارة، فهي الجهد الذي يُقدَّم لخدمة الإنسان في كل نواحي حياته، أوهي التقدم في المدنية والثقافة معًا، فالثقافة هي التقدم في الأفكار النظرية مثل القانون والسياسة والاجتماع والأخلاق وغيرها، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيرًا سليمًا، أما المدنية فهي التقدم والرقى في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة مثل الطب والهندسة والزراعة وغيرها.. وقد سميت بالمدنيَّة؛ لأنها ترتبط بالمدينة، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله، وإخضاع ظروف البيئة للإنسان.

لابد للإنسان من الثقافة والمدنية معًا، لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم، وتتحسن حياتهم، لذلك فإن الدولة التي تهتم بالتقدم المادي على حساب التقدم في مجال القيم والأخلاق، دولة مدنيَّة، وليست متحضرة؛ ومن هنا فإن تقدم الدول الغربية في العصر الحديث يعد مدنية وليس حضارة؛ لأن الغرب اهتم بالتقدم المادي على حساب القيم والمبادئ والأخلاق، أما الإسلام الذي كرَّم الإنسان وأعلى من شأنه، فقد جاء بحضارة سامية، تسهم في تيسير حياة الإنسان.

فالحضارة الإسلامية هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشري من قيم ومبادئ، وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي وتيسِّر الحياة للإنسان.

فقد بدأت الحضارة الإسلامية مع بداية الإسلام، وبالأخص بعد قيام الدولة الإسلامية في وقت النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أخذ في الازدياد والتطور مع اتساع الفتوحات الإسلامية إلى أن وصل إلى ما وصل إليه، وهذا إن صحت نسبته فإنما تصح للنبي عليه الصلاة والسلام بعد الله تعالى، وأما من عداه فكل ساهم بما استطاع إلى أن استتم البناء.

أهمية الحضارة الإسلامية:

الفرد هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وإذا صلح صلح المجتمع كله، وأصبح قادرا على أن يحمل مشعل الحضارة، ويبلغها للعالمين، ومن أجل ذلك جاء الإسلام بتعاليم ومبادئ تُصلح هذا الفرد، وتجعل حياته هادئة مستقرة، وأعطاه من المبادئ ما يصلح كيانه وروحه وعقله وجسده.

وبعد اصلاح الفرد يتوجه الإسلام بالخطاب إلى المجتمع الذي يتكون من أفراد، ويحثهم على الترابط والتعاون والبر والتقوى، وعلى كل خير، لتعمير هذه الأرض، واستخراج ما بها من خيرات، وتسخرها لخدمة الإنسان وسعادته، وقد كان آباؤنا على قدر المسؤولية، فحملوا هذه الحضارة، وانطلقوا بها يعلمون العالم كله ويوجهونه.

وللحضارة أنواع.. فقد قدمتها دولة من الدول الإسلامية لرفع شأن الإنسان وخدمته، وعند الحديث عن حضارة الدول ينبغي أن نتحدث عن تاريخ الدولة التي قدمت هذه الحضارة، وعن ميادين حضارتها، مثل: الزراعة، والصناعة، والتعليم، وعلاقة هذه الدولة الإسلامية بغيرها من الدول، وما قدمته من إنجازات في هذا الميدان، فالحضارة الإسلامية الأصيلة:

هي الحضارة التي جاء بها الإسلام لخدمة البشرية كلها، وتشمل ما جاء به الإسلام من تعاليم في مجال: العقيدة، والسياسة، والاقتصاد، والقضاء، والتربية، وغير ذلك من أمور الحياة التي تسعد الإنسان وتيسر أموره والحضارة المقتبسة: وتسمى حضارة البعث والإحياء، وهذه الحضارة كانت خدمة من المسلمين للبشرية كلها، فقد كانت هناك حضارات وعلوم ماتت، فأحياها المسلمون وطوروها، وصبغوها بالجانب الأخلاقي الذي استمدوه من الإسلام، وقد جعل هذا الأمر كُتاب العالم الغربي يقولون: إن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة، وهما حضارتا اليونان والرومان، وأن العقلية العربية قدْ بدَّلت الصورة الظاهرة لكل هذه الحضارات وركبتها في أسلوب جديد، مما جعلها تظهر بصورة مستقلة.

وهذه فكرة خاطئة لا أساس لها من الصحة، فالحضارة الإسلامية في ذاتها وجوهرها إسلامية خالصة، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات اختلافًا كبيرًا، إنها حضارة قائمة بذاتها، لأنها تنبعث من العقيدة الإسلامية، وتستهدف تحقيق الغاية الإسلامية، ألا وهي إعمار الكون بشريعة الله لنيل رضاه، لا مجرد تحقيق التقدم المادي، ولو كان ذلك على حساب الإنسان والدين كما هو الحال في حضارات أخرى، مع الحرص على التقدم المادي؛ لما فيه من مصلحة الأفراد والمجتمع الإنساني كله.

أما ما استفادته من الحضارات الأخرى فقد كان ميزة تحسب لها لا عليها، إذ تعنى تفتح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين، ولكن وضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة، فالتقدم والتطور يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون، ثم تضيف الحضارة الجديدة لتكمل ما بدأته الحضارات الأخرى، وللحضارة خصائص عدة

تحتوي على جوانب: سياسية – اقتصادية – اجتماعية – علمية – علاقات دولية – نظم تشريعية – نظم قضائية – جوانب عسكرية – والدور الحضاري للإنسان المعاصر.

وكانت آراء المستشرقين في الحضارة والنهضة العمرانية تستند على أن الحضارة الإسلامية من أهم وأشهر الحضارات، فقد مرت بفترات وعصور، جعلتها أكثر الحضارات ازدهاراً، ونجد أن هذه الحضارة قد تفوقت في كل المجالات كمجال البناء العمراني والمعماري والذوق الرفيع في مبانيها ومساجدها وآثارها القديمة وكذلك تقدمها في العلوم والفنون والأدب العربي الرائع وغيرها من المجالات التي تفوقت بها الحضارة الإسلامية.

فقد اهتمت الدولة الإسلامية التي أنشأها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واستمرت تحت مسمى الخلافة في الفترات الأموية والعباسية بالعلوم والمدنية، كما اهتمت بالنواحي الدينية، فكانت الحضارة الإسلامية حضارة تمزج بين العقل والروح، فامتازت عن كثير من الحضارات السابقة والتي كانت عبارة عن مجرد امبراطوريات ليس لها أساس من علم ودين، فالإسلام كدين عالمي يحض على طلب العلم، ويعتبرهُ فريضة على كل مسلم، لتنهض أمه وشعوبه، فأي علم مقبول باستثناء العلم الذي يخالف قواعد الإسلام ونواهيه، والإسلام يكرم العلماء ويجعلهم ورثة الأنبياء، وتتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لا تخرج عن نطاق القواعد الإسلامية، لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام، وكانت الفلسفة يخضعها الفلاسفة المسلمون للقواعد الأصولية مما أظهر علم الكلام الذي اعتبر علماً في علم الأديان، فترجمت أعمالها في أوروبا وكان له تأثيره في ظهور الفلسفة الحديثة وتحرير العلم من الكهنوت الكنسي فيما بعد. مما حقق لأوروبا ظهور عصر النهضة بها، من هنا نشير إلى التطلعات الكبيرة في الإنشاء والتعمير ونهضته، وفي مرحلة بناء أساسياتها لترقى بعمارة تعتمد بأولوياتها على التخطيط والبحث والتفكير.

إذاً فالعمارة هي فن وعلم تصميم وتخطيط وتشييد المباني والمنشآت ليغطي بها الإنسان احتياجات مادية أو معنوية وذلك باستخدام مواد وأساليب إنشائية مختلفة، ويتسع مجال العمارة ليشمل مجالات مختلفة من نواحي المعرفة

والعلوم الإنسانية، مثل الرياضيات والعلوم والتكنولوجيا والتاريخ وعلم النفس والسياسة والفلسفة والعلوم الاجتماعية والثقافة والفن بصيغته الشاملة.

فالعمارة ذات علاقة وثيقة بمجالات تخطيط المدن والتخطيط العمراني، والتأثيث المدني والتصميم الداخلي، فالمطلوب من المعماري في مرحلة التصميم، التلاعب الخلاق بالموارد والتقنيات المتوفرة، لتحليل المعطيات المتضاربة، من أجل وضع تصور كامل ومفصل للمشروع يعكس الاعتبارات الوظيفية والفنية والجمالية ويربط المشروع بالطبيعة والتقاليد والعادات الموجودة بالمنطقة، وإيجاد صيغة مناسبة من التصميم تترجم احتياجات الناس المستخدمين للمكان فيما بعد، كما يجب عليه أيضاً إعداد الرسومات والمخططات المعمارية والوصفية لتحديد أسلوب التشييد، وإعداد الجداول الزمنية وتقدير التكلفة وإدارة البناء.

ويتجلى الأثر المعماري في الشكل الفني من خلال النظر في كثير من النماذج المعمارية للمباني القديمة في تدمر وبابل وغيرهما من الآثار المعمارية المتفرقة في بيئتنا العربية القديمة.

إن موضوعات العمارة والمنشآت المدنية تبدو واسعة الطيف في عالمنا المعاصر، يتداخل في ظلها أكثر من علم، كما تؤثر فيها عوامل ومعطيات فنية وفكرية متعددة، وإذا دققنا بهذا الخصوص ونظرنا الى العمارة من زاوية نظرية، نجد أنها تعتبر فناً من الفنون المكانية (الجميلة)، بل تصنف عادة بين الفنون، على الرغم من انتمائها إلى نسق العلوم التطبيقية عملياً. ففي كتب علم الجمال تصنف العمارة كأبرز الفنون، حيث أن مؤلفات القرن التاسع عشر تسهب في الدراسات المعمارية الجمالية، وتشطح بعضها لدرجة اعتبار العمارة فناً مجرداً.

إلا أن الدراسات النظرية والتنظيرية التي تعالج العمارة قلت نسبياً في القرن العشرين، أمام الكم الهائل من الإنتاج المعماري والتوسع العمراني، وبالتالي عملية تشييد الصروح المعمارية والإنشائية بالطرائق الفنية التقليدية، أو تلك المبينة على أسس علمية فيزيائية معاصرة، حيث يتغلب في الطريقة الأخيرة الجانب العلمي التقني على الفني الجمالي.

وبذلك تحولت العمارة تدريجيًا في الألفية الثالثة الى الإنتاج السلعي واكتسبت قوانينها تدريجيا، إذ تغيرت الدلالات الجمالية والصيغ الرمزية للمفردات المعمارية، مع تبدل التصاميم واستنباط مواد جديدة للبناء وتنويع وظيفة المنشأة.

وبقدر ما تبتعد العمارة المعاصرة عن جذورها الفنية، تستمر الحاجة لتناولها ثقافيًا ومعرفيًا' فمهما حدث، تظل العمارة ظاهرة فنية جمالية، وأحد تجسيدات وتغييرات البيئة والهوية والخصوصية المحلية، والأهم من ذلك، أنها باتت تشكل اليوم مجمل البيئة الاصطناعية للمدن والأرياف، وتهيكل حياة الإنسان الاجتماعية وتحدد احداثياته المكانية، وربما جغرافيته الاجتماعية إن جاز التعبير، ونتيجة للتصادمات الطبيعية لاتجاهات العمارة المعاصرة، حيث تنصب الاهتمامات على العمارة من زوايا متعددة (فلسفية، معرفية، وظيفية، شكلية، إعلامية، خاصة)، أو عندما تبرز تعقيدات المسألة العمرانية الهندسية المنبثقة من إشكالية تغيير النسيج المعماري الأثري للمدن القديمة، وغالبًا ما ينجم عن هذه الإجراءات نوع من التصادم بين طرازين مختلفين من البناء، الحديث الغربي والتراثي الشرقي، فتقع تلك التصادمات بين الرؤيتين بسبب الجهل العلمي والفني بين الطرفين، فيحدث كل هذا على خلفية افتقار الرؤية الصحيحة، والمفاهيم والأدبيات العربية من دراية فكرية ومنهجية، وبعد الاطلاع والتمحيص على النواحي البيئية والاجتماعية والتنموية والتاريخية، قلما نجد دراسة علمية منهجية تعالجها من الداخل خارج حقل المعارف الجامعية، ويبدو أن تدني مستوى الاهتمام بالعمارة ثقافيا ومعرفيا، وضيق المساحات المخصصة لها إعلاميا، ساهم في تراجع الموضوع ذاته، إلى زوايا هامشية على جدول أعمال (الهموم الثقافية والتاريخية)، وبالتالي مهد هذا التراجع لوضعية الضعف العام في فهم الأدبيات الحضرية العربية شكلاً ومضمونًا، وصولاً إلى ما يمكن اعتباره تدنيًا في الوعي المعماري، الذي يمكن أن نعرج على سبب ضعفه وتراجعه، والجدير بالذكر يجب أن نسلط الضوء على تلك النقاط، لتلافيها والارتقاء إلى ذروة البناء والتطلع الحضاري المعماري..